باب الكتب الجديدة

أنواع انحلال الذاكرة — تأليف جان دليه ١٩٤٢ — ١٤٩ ص .

Les dissolutions de la mémoire. Jean Delay. Presses universitaires de France - 1942. Paris. P.p 149

لاحظ العلامة بيرجانيه فى تقديمه هذا الكتاب أن أهم ميزة يمتاز بها المؤلف هو الجمع بين الطب وعلم النفس . ويرمى التأليف إلى تحقيق هذا التقريب فنراه يفصل الحقائق التشريحية ويذكر الظواهر الطبية بلغة مألوفة لدى علماء النفس .

عرض المؤلف لمختلف النظريات التى حاولت أن تشرح حقيقة الذاكرة . وناقش بتطويل صلة الذاكرة بالعادة وما قيل فى الأساس البيولوجى للذاكرة — وذكر مواقف العلماء من هذه النظرية فعرض أقوال بيرون وريبو وبيير مارى وبرجسون — وبعد ما بين الخلاف الواسع بين موقف ريبو وبرجسون فيما يختص بوحدة الذاكرة وازدواجها حاول أن يجد أساسا يقرب بينهما فيما يذهب إليه كل منهما فى جعل الذاكرة مظهراً من مظاهر الآلية .

وأعار المؤلف اهتماماً خاصاً بنظرية بيرجانيه التى تعتبر الذاكرة فعلا اجتماعياً وهو الحكاية (Le récit) والمهم هو أن بيرجانيه يضع الذاكرة فى مكان عال من النشاط الذهنى ويكون فعل التذكر تركيباً ذهنياً يتطلب التعرف والشعور بالزمان .

وأفاد المؤلف من أبحاثه الطبية حول فقدان الذاكرة اللمسية وخرج منها بفكرة التفاوت والترتيب الموجودين بين الحالات النفسية ووجود بعضها حسيا والبعض الآخر يرجع إلى التعرف (gnosiques) والذاكرة (mnésiques) وإن كانت هذه الأفكار متصلة بآراء جاكسن Jackson وهنرى هيد Henry Head فإنها وجهت المؤلف إلى الجمع بين مختلف الأبحاث فى فقدان الذاكرة ليصل إلى ثلاث نقط خاصة :

(١) تصنيف أمراض الذاكرة وإرجاعها إلى أنواع من الانحلال بعضها عصبي وبعضها الآخر مرضى عقلى

(٢) اعتبار وظيفة الذاكرة كتكامل تراكيب سيكلوجية لمستويات مختلفة . ويؤدى

تفكك انفعال هذا التكامل إلى خفض النشاط النفسى من جهة وإلى ظهور حالات من الذاكرة كانت مكبوتة .

(٣) البرهنة على صحة قانون الانحلال والانتكاس .

ويميز المؤلف بين حالتين من فقدان الذاكرة ، حالة يرجع فيها الفقدان إلى إصابات جزئية فى الجهاز العصبى وحالات أخرى من فقدان الذاكرة ترجع إلى اضطراب عام فى النشاط النفسى — وذكر لذلك أمثلة حية تتبعها المؤلف . ونستطيع أن نلاحظ أن الحالة الأولى تحدث فقدان أنواع خاصة من الذاكرة وأما الحالة الثانية فتظهر فى فقدان الذاكرة عامة والعجز عن الاسترجاع أو الحكاية Le récit أى أن الاضطراب يلحق الأساس الاجتماعى وفى الحالة الأولى نجد أغلب الاضطرابات تلحق الذاكرة الحسية الحركية وهى خاضعة لقوانين العادة .

ومن الصعب عرض كل الفوائد التى جناها المؤلف فى تطبيق هذا التصنيف لاضطرابات الذاكرة على دراسة مختلف الحالات النفسية الأخرى — ونذكر منها ما لاحظه المؤلف من أن النوم هو الحالة النفسية التى تفقد الذاكرة صفتها الاجتماعية . وقرب بين الحلم وبين التخريف démence — وبين نوعين من الهلوسة ، هلوسة الماضى ecmnésie وهلوسة الحاضر paramnésie وإليها ترجع حالة الشعور بالرؤية السابقة Sentiment du déja-vu . وهذه الملاحظات هامة لأنها بمثابة تجارب طبيعية تبين لنا بطريقة سلبية أثر المجتمع فى الحالات النفسية — وذلك لأننا نستطيع أن نقارن بين نوعين من الذاكرة إحداهما إجتماعيـــة والأخرى ذاتية autistique وهذه الأخيرة تلعب دوراً هاماً فى التحليل النفسى .

ذكر المؤلف بتفصيل دقيق أنواع الاضطرابات التى تلحق آثار الإحساس أو الذاكرة الحسية ويمكن أيضاً أن نسمى هذه الظاهرة فقدان التعرف agnosie وعرض لمشكلة الإدراك وهل هو جمعى أو شكلى — ودرس ملاحظات وقف عليها المؤلف بنفسها فى حالات فتاة مريضة . ويجد القارئ نقداً عميقاً لكل النظريات النفسية والفلسفية والطبية التى أثيرت حول هذا الموضوع — وكان لهذا البحث ميزة ظهرت فى بعض التعبيرات التى أوضحت لنا نقطاً هامة فى علم النفس منها مشكلة الشعور وعلاقته بالإدراك والإحساس . وقال المؤلف بفكرة « التخطيط الفعال » Schéma dynamique التى نجد أصولها عند برجسون. وربط المؤلف هذه الفكرة بتجارب هامة فى علم النفس تبين كيف أننـا « عندما نلمس شيئاً ، فإن أول شىء يبرز هو « التخطيط

الفعال » واستعداد للادراك ونوع من اتجاه المجهود ... ولكن الصورة تكون موجودة من قبل فى هذا التخطيط وليست الصورة غير تطور التخطيط فهى موجودة كلها من قبل فى هذا « الاتجاه للشعور والاتجاه نفسه شعور باتجاه »

ووضع المؤلف مشكلة الحبسة aphasie وضعاً جديداً إذ سأل هل هي ناتجة من اضطراب محلى فى الجهاز العصبي أم هى ناشئة عن اضطراب عام فى النشاط النفسى . وكانت هذه المشكلة تبحث بطريقة السؤال الآتى : هل يوجد نوع واحد من الحبسة أم هناك أنواع ؟ واستعرض بهذه المناسبة كل الاضطرابات التى تلحق التعبير تحت ضوء جديد وهو الاختلاف الذى يلاحظ فى اضطراب الوظائف النفسية حسب الخلل الذى قد يلحق الجسم فى جزء من أجزائه أو الخلل الذى قد يحدث فى التكامل الجسمى النفسى . وأهم خطوة خطاها جان ديليه فى هذا الموضوع هو ما قال به من أن النوعين من الاضطراب متلازمان (ص ٦٧)

وتفيدنا هذه الفكرة فى حلّ مشاكل عديدة تظهر دائماً عند الكلام عن اضطراب الذاكرة الناشىء عن أنواع الانحلال النفسى — إن الدراسات القديمة للذاكرة لم تكن تشمل التسجيل الحالى للذاكرة وكانت قاصرة على دراسة فقدان المعلومات السابقة . ومـيّز فى عملية التثبيت فى الحاضر (La fixation du présent) بين مظهرين : التثبيت البسيط لحالة شعورية وفعل التذكر — ويجد القارىء دراسة عميقة لصلة الفعل بالشعور بالحاضر .

ويشكو بعض المرضى من الاضطراب الداخلى ويشعرون بكثرة الأفكار تزدحم حول بؤرة الشعور ويعبر المريض عن هذه الحالة بقوله أشعر «بدوشة» فى مخى . وكنا نعتقد أن هذه الأفكار جديدة ولكن أثبت المؤلف وجود هذيان للذاكرة وقد يصل الحال بالمريض إلى أن يدرك الماضى كحاضر وذلك ما سماه المؤلف بهلوسة الماضى. وتكون هذه الحالة فى أغلب الأحيان متصلة باضطراب ذهنى انفعالى . ويرى دليه أن ما سماه برجسون بالتعرف الخاطىء fausse reconnaissance هو هذيان الذاكرة . وعرف المؤلف كيف يصل من طريق دراسته هذه إلى أخطر الموضوعات فى علم النفس كالحلم والجنون . وقدم شرحاً دقيقاً لمرض الهذاء Paranoia (كجنون الاضطهاد) وأقام فرقاً دقيقاً بين أنواع التفكير الهذائى فبعضه خاضع لقواعد وسماه pensée paranoïaque والبعض الآخر غير خاضع وسماه Pensée paranoïde ولهذا التفكير مظهران أحدهما سلبى يظهر فى انهدام التركيب الذهنى وانعدام التكيف الواقعى والثانى ايجابى يظهر فى الخلق الوهمى المشوّه المعروف عند الناس بعبارة الجنون (ص ١١٦ – ١١٧)

ويختتم الكتاب بفصل عن نشوء أنواع الانحلال درس فيه المؤلف الأسس التشريحيه لأمراض الحس والإدراك والذاكرة . وربط بين الإصابات المخية والاضطرابات النفسية .

وعرض المؤلف بشيء من التفصيل لموقف التحليل النفسى من النسيان . وعرض بعض الحالات التى لاحظها فرويد وبيير جانيه . وبين كيف ان التفكير الإرادى فى موضوع كان الشخص يحاول أن ينساه يجعل هذا الموضوع يختفى ولا يظهر كفكرة ثابتة .

وأنهى المؤلف بحثه بمحاولة الجمع بين الاتجاهين الفسيولوجى والنفسى فى فهم أمراض الذاكرة وبين أن أغلب المشاكل المتصلة بهذا الموضوع يمكن الإجابة عنها باستعمال قانون الانحلال الذى قال به جاكسن والذى يقدم شرحاً للمظهر السلبي فى فقدان الذاكرة ويقوم هذا على فكرة التفاوت والترتيب بين المستويات . ويقدم هذا القانون شرحاً إيجابياً لفقدان الذاكرة إذ يعبر لنا عن تحرّر الوظيفة الدنيا من ضبط الوظيفة العليا عند تلاشى الكف (ص ١٤٨) .

وينتهى القارىء إلى فكرة التكامل النفسى التى يقوم عليها البحث من أساسه وإلى فكرة التفاوت والتساوى بين مستويات النشاط النفسى ، والاتصال الطبيعي بين الوظائف النفسية أساس مدرسة علم النفس التكاملى ويكون هذا البحث تأييداً إيجابياً لحاجة علم النفس إلى منهج يتبع الترابط الطبيعى بين الوظائف النفسية ليصل إلى فهم النفس فى وحدتها وتكاملها .

ابو مدين الشافعى

المدخل الى علم الاجتماع تأليف جلين وجلين ، ١٩٤٢ ، ٨٠٦ ص .

An Introduction to Sociology by J. L. Gillin & J Ph. Gillin. Macmillan 1942, Pp. 806

استهل الأستاذان المؤلفان كتابهما بفصل تناولا فيه بالإبانة والتوضيح ، الأسس الطبيعية للحياة الاجتماعية ، فقالا إن هذا اللون من الحياة لم يختص به الإنسان وحده ، بل نراه يظهر عند كائنات أخرى من قبيل النمل والنحل والزنابير وكلاب البحر beavers والقردة العليا ، إلا أننا إذا تأملنا المجتمع البشرى ألفيناه يكشف لنا فى غير مشقة عن خاصية لا نجدها فى تلك المجتمعات جميعاً ، تلك الخاصية هى « التغاير » ففى داخل ذلك النوع الواحد الذى يسمى «الإنسان» وجدت وما تزال توجد ألوان متباينة من الحياة الاجتماعية، بينما أخذ كل نوع من أنواع الحيوان الأخرى يمارس نموذجاً من الحياة الاجتماعية

خاصاً به فلا يكاد يغيره أبداً .على أن رجال علم الحيوان يستطيعون أن يكشفوا لنا أحياناً عن تغيرات ذات أهمية تذكر ، طرأت على المجتمعات غير البشرية، ولكن فى لحظات تفصل بينهما فترات زمنية طويلة جداً ، وكل من هذه التغيرات إذا طرأ يكون مصاحباً لتغير فى البناء الفيزيائى الموروث يمس الكائن فى صميمه ، حتى ليمكن تسميته بالتطور إلى نوع جديد . بينما المجتمع البشرى تعتريه تغيرات متلاحقة تمسه فى صميمه ، دون أن يفقد الإنسان إنسانيته .

ذلك هو الفارق الأساسى بين مجتمع الإنسان ومجتمع الحيوان ، ولكى نفهم الأساس الذى يقوم عليه ، يلزمنا الرجوع إلى علم النفس ، حيث نعلم إلى أى مدى يكون سلوكنا مكتسباً وإلى أى مدى يكون غرزياً ، والناحية الاكتسابية هى الأصل فى التغير والناحية الغرزية هى الأصل فى الثبات . فإذا كانت المجتمعات الحيوانية قد بقيت ثابتة على الصورة التى ظهرت بها أول ما ظهرت (مصاحبة لظهور النوع) فمرجع ذلك إلى أن تصرفات الحيوان تصدر عن أصول غرزية بطريقة آلية ، وعلى العكس من ذلك تصرفات الإنسان الذى هو دائماً على استعداد لأن يتعلم ويكتسب سلوكا جديداً يلائم أية بيئة يوجد فيها هذا إلى أنه هو وحده — من بين سائر أنواع الحيوان — الذى يعيش فى كل بقاع الأرض تقريباً .

وقد خصص المؤلفان فصلا بأكمله للبحث فى مسألة الكائن والبيئة ، تحدثا فيه عن العوامل العصبية والآليات ، ثم انتقلا إلى الحديث عن الأسس الهامة لعملية الاكتساب أو التعلم ، وتطور السلوك المكتسب ، ثم تناولا بالحديث البيئة الطبيعية والبيئة الثقافية الاجتماعية ، وانتهيا من كل ذلك إلى أن الإنسان يعيش مستعيناً بردود أفعال مكتسبة ، وأنه لما يمتاز به بدنه من ضعف ، ونموه من بطء يعيش فى جماعات حتى يقوى على البقاء ؛ والنتيجة الطبيعية لهاتين الحقيقتين أن تكون جل استجابات الإنسان جماعية ، وتلك هى التى نسميها بالعادات الاجتماعية customs ، أو "بالثقافة" culture . فالثقافة إذاً ظاهرة نفسانية ، تظهر فى شكل سلوك .

على أن عناصر الثقافة تنبثق من أذهان فردية ، ويكون انبثاقها أحياناً من قبيل الاكتشاف أو الابتكار العرضى ، لكنها فى معظم الأحايين تكون عبارة عن تغييرات لاشعورية وتنتقل إلى أفراد آخرين داخل المجتمع وخارجه فى حدود قوانين معينة هى قوانين اختلاط الثقافات .

هكذا يعالج المؤلفان موضوعات الكتاب ، فهما يستعينان تارة « بالإحصاء » باعتباره

المنهج الرئيسى للبحث الاجتماعي ذى الصبغة العلمية ، ويستعينان تارة أخرى بحقائق علم النفس ؛ لأن الأساس لديهما أن لا الفرد وحده ولا المجتمع وحده يمكن اعتباره حقيقة نهائية ؛ الفرد تجريد ليس له وجود في الواقع ، وكذلك المجتمع ، باعتباره شيئاً مغايراً للأفراد ، ليس له وجود خارج أذهاننا التجريدية ، إنما الحياة هى الحقيقة النهائية ، تعرض نفسها فى صورتين تكمل كل منهما الأخرى ، صورة الحياة الفردية وصورة الحياة الاجتماعية ، وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفهم إلى أى مدى يتأثر المجتمع بالفرد ويتأثر الفرد بالمجتمع .

والكتاب بوجه عام يتألف من سبعة أجزاء عدا المقدمة ، وقد عالج المؤلفان في الجزء الثانى الأسس الطبيعية للحياة الاجتماعية ، وفى الجزء الثالث الأسس الاجتماعية للمجتمع ، وفي الجزء الرابع المؤسسات الاجتماعية ، من قبيل الأسرة والمؤسسات الاقتصادية والتربيية والسياسية والدينية ، وفى الجزء الخامس التغير والضبط الاجتماعيين ، وفى الجزء السادس العمليات الاجتماعية وفي الجزء السابع علم الأمراض الاجتماعي (البائولوجيا الاجتماعية) ، ثم ختما ذلك المؤلف القيّم بتلخيص لأهم ما ورد فيه من حقائق ؛ وقد ذُيّل كل فصل من فصول الكتاب بطائفة من المراجع التى يحسن بالقاريء أن يقرأها إذا أراد التوسع فى هذه الناحية أو تلك ، كما ذيّلت بعض الفصول الهامة بتلخيص لما ورد فيها ، وعدد من الأسئلة التى يستطيع القارىء إن كان طالب علم أن يستفيد منها أعظم فائدة .

م . ا . س

علم النفس والطابع الاجتماعى

للأستاذ جوليان بلاكبيرن — دكتور فى الفلسفة وأستاذ فى الاقتصاد

محاضر فى علم النفس الاجتماعى بمدرسة العلوم الاقتصادية والسياسية فى جامعة لندن ١٩٤٥، ١٥٧ ص

Psychology and the social pattern. by Julian Blakburn Ph D. B. Sc, (Econ.) Kegan Paul, London. 1945. Pp. 157.

هذا أحدث كتاب فى علم النفس الاجتماعى وأول ثلاثة كتب فى هذه الناحية من علم النفس، يصدرها الدكتور كارل مانهيم Karl Mannheim فى مجموعة مكتبة علم الاجتماع والاصلاح الاجتماعى الدولية National Library of Sociology and Social Reconstruction والكتاب — كما زعم صاحبه فى المقدمة : « محاولة أولى لإنشاء حلقة بين علم النفس وعلم النفس الاجتماعى من ناحية وعلم النفس العام وتحليل الأمراض

النفسية من ناحية أخرى » . ذلك أن الناس يسلكون — كما يقول فى الفصل الأول من كتابه — على أنحاء مختلفة — وكثيراً ما يكون سلوكهم نتيجة تأثيرات يفرضها عليهم مجتمع صغير كالأسرة — أو أكبر قليلا كالمدرسة ، أو أكبر كثيراً كالجماعات المدنية والقومية التى ينشئون فيها ، ولكل من هذه الجماعات تقاليده وعاداته التى هى من القوة بحيث تبتلع الفرد عادة إذا حاول أن يخرج فى سلوكه عليها — وكثيراً ما يأخذ بها الفرد على أنها الطريق السوى للسلوك .

ويضرب المؤلف لذلك مثل شخص لحق بالجيش — كيف أنه لكى يصل إلى ما يريد ينبغى أن يسلك أقوم السبل — وإن لم يجد — ثم أنه يبدو له أن يثور على هذا الاستبداد ، ولكنه عند ما يصطدم بالواقع لا يجد لديه من القوة ما يسمح له بتلك الثورة وهذا التغيير فيصم على اكتساح هذه الآثار إذا هو تولى منصباً مسئولا . ويرقى بالجيش رقياً يسجله له التاريخ . فإذا بلغ ما يريد من هذه المناصب لم يعد يستحسن هذه الطرق المألوفة فحسب ، بل أنه ليميل إلى مناصرتها حتى يراها أحسن الطرق ؛ هذا إلى ما يطرأ عليه حينئذ عن شيخوخة توهن من عزمه وتقلل من حماسته ، فهذه العوامل كلها : انطباعه بالروح العسكرى وألفته عاداته وتقاليده قد أدبا به إلى موقف لا يريد معه أن يحدث هذه التغييرات الرئيسية التى أرادها فى حداثته — مما يدل على أن تركيب مجتمعه هذا قد أثر فى سلوكه بدرجة بالغة الأهمية .

وهذا النوع من الأثر هو ما يعنى به علم النفس الاجتماعى . وما يحاول أن يستخرجه هذا الكتاب من الموضوعات التى كتب فيها علماء النفس مما له صلة بسيكولوجيا الاجتماع وقد كان المؤلف يفضل أن يترك للقارىء الكشف عن نزعته هذه وهو يشق طريقه فى هذا الكتاب ، ولكنه آثر أن يعرضه فى مقدمته إلى شىء مما تأثر به فى تخير موضوعات كتابه على النحو الذى أوردها به فيه . فهو يحاول أن يتحدث عن الموضوعات الرئيسية فى علم النفس التجريبى . وأن يقدم هذه الموضوعات فى المواضع من الكتاب التى يبدو أنها أظهر ما تكون فيها .

ولكنه تأثر أشد ما تأثر بمحاولة إبراز النواحى الاجتماعية فى هذه الموضوعات التى يعالجها عادة علم النفس العام ، ومحاولة إنشاء حلقة بين هذه الموضوعات كما تعرض لها هذه الكتب ، وبين ما يعرض له علم النفس المرضى abnormal psychology من موضوعات .

وذلك هو أهم ما فى هذا الكتاب من جدة — أعنى جمعه فى دراسة واحدة بين علم

النفس الاجتماعى وعلم النفس المرضى . ولذلك ما يبرره : فمع أن غالبية الناس سيكيفون سلوكهم بما تقتضيه إرادة الجماعة التى ينتمون إليها ؛ إلا أن هناك طائفة سوف تسلك طريقاً يتعارض مع ما ترسمه الجماعة من نظم وعادات وتقاليد ، برغم أو قل بسبب هذه النظم والعادات والتقاليد . ويشبه أمثال هؤلاء أن يكونوا أفراداً منحرفين عن مجتمعاتهم فيما يسلكون ، وغرض الكتاب فى المقام الثانى إذن أن بين ما إذا كان ثمت صلة بين طرائق السلوك السوى — التى هى ميدان علم النفس العام — وبين المسالك الشاذة المنحرفة التى تعرض لها عادة كتب الطب العقلى psychiatry ويحاول مؤلفه أن يبين الصلة بين السلوك السوى والسلوك المنحرف .

أما ما عرضه بلاكبيرن فى كتابه من موضوعات صنفها تصنيفاً جديداً أيضاً ، ملخصة أولا فى الفصل الأول ، ثم مفصلة بعد فى الفصول التى تليه ، فهى الإدراك ، وما يعرض له من خداع وهلوسة والتصديق وما يعتريه من خطأ وتفكير ونزاع وعدم قدرة على التعبير اللغوى aphasia — والفصل الرابع فى التذكر — وتجارب بارتلت فيها F. C. Bartlett وما يطرأ على التذكر من نسيان . ثم يعرض إلى الذكاء ومقاييسه فى نموها وتقهقرها ، وما بين الأفراد فيه من إختلافات . ثم يتناول الشخصية والمزاج والدوافع الشرطية والغريزية . ويعرض تصنيفاً للغرائز . ويخلص إلى الكلام عن العواطف والميول والرغبات . ثم ينتهى إلى آليات العقل والانفعال مع عرض لنظريات فرويد ودارون ووطسون .

والكتاب بعد واضح الفكرة سهل العبارة ، ذيل المؤلف كل فصل من فصوله بمراجع تعين على التوسع فى موضوعه ويقع فى ١٥٧ صفحة من القطع الكبير .

كمال دسوقى

الأحلام

الدكتور توفيق الطويل — ١٩٤٥ — القاهرة — ٢٤٧ ص

يرى المؤلف أن من يعالج موضوع الأحلام يتحتم عليه لكى يكون منطقيا فى بحثه أن ينظر في مسألة النوم ؛ ولقد كان مفكرو الإسلام يردون غيبة المحسوسات الظاهرة (في حالة النوم) إلى تعب يعترى الحواس من جراء حركتها إبان اليقظة ، وإلى هذا يذهب بعض المحدثين قائلين إن التاعب التى يتحملها المرء في طوال يومه تؤدى إلى

إفراز مادة ينشأ النوم عن تراكمها ؛ وعند النوم يأخذ الجسم فى التخلص منها ، إلا أن كلاباريد يضاد هذا الرأى ، فالتعب الجسمانى فيما يرى قد يؤدى إلى العكس إلى الأرق ، والواقع أن النوم لايكون نتيجة لاحتمال التعب ، بل لمنع وقوعه ؛ ولكن ياقلوف يتقدم بنظرية أخرى مستخدماً في ذلك جهازه العتيد ، الجرس والمترونوم والكلب ، وخلاصة النظرية أن المؤثرات الشرطية متى تكررت دون أن تتحقق نتائجها فقدت تأثيرها ، فإذا أحدثت صوتاً على مسمع من كلب اتجه الكلب إلى الصوت بأذنيه ، وحاول أن يتبينه عسى أن يحمل الصوت إليه شيئاً تغنيه كتقديم طعام مثلا ، فإن تكرر الصوت مرات دون أن يعقبه شيء ، أو يصحبه مؤثر آخر يثير الانتباه ضعف اهتمام الكلب به ، حتي ينتهى به الأمر إلى سحب انتباهه منه ، فيقع الصوت والجهاز السمعى سليم يؤدى وظيفته فى الاستماع إليه ، ولكن تكرار الإنصات إليه فى فترات متعاقبة على غير جدوى ، يبطل حاسة السمع إبطالا إيجابياً فإن كثرة التكرار تجعل الإبطال يتجاوز حاسة السمع إلى اللحاء المخى بأسره ، وعندئذ يحدث النوم . والفكرة التى أقيمت عليها هذه النظرية عريقة فى القدم فقد عرف الناس من قديم الزمان النوم الذى ينشأ عن تكرار المؤثرات على الحواس ، وعلى هذا اعتمدت الأمهات فى إنامة أطفالهن بالأغانى المتكررة التى تبعث على الملل ولا يعقبها أو يصحبها ما يثير انتباه الطفل وكذلك يقال فى النعاس الذى يغشى من يستمعون إلى خطيب أومدرس يجرى فى حديثه على نسق واحد .

وقد عرض المؤلف بعد ذلك لنظريات أخرى قيلت في تفسير النوم منها نظرية أنيميا المخ ، ونظرية التغيرات الكيميائية الطبيعية والنظرية البيولوجية التى تعتبر النوم خاصة من خواص الحياة تشمل الحيوان كله حتى ذا الخلية الواحدة منه ، والنظرية التى رددها بعض أعضاء التحليل النفسى حين قالوا بأننا ننام رغبة منا فى استمرار الاعتقاد بأنا لا نزال أطفالا .

ولقد كانت لأرسطو آراء قيمة فى موضوع النوم والأحلام ، عاشت فى التفكير الإسلامى دون أن يطرأ عليها تغيير ما ؛ فهو يقرر بأن الحلم يحول الإحساسات الخفيفة التى يتلقاها النائم أثناء نومه إلى إحساسات مكبرة . ومن الممكن أن تعتبر هذه الإحساسات الواقعة على حواس النائم أثناء نومه منشأ الأحلام ، ومن الممكن أيضا أن تنشأ الأحلام من صور ذهنية لإحساسات سابقة ، تشكلها بأشكال شتى .

وقد رد برجسون فى العصر الحديث أكثر الأحلام إلى مؤثرات الحس ، فإن حواسنا لا تتعطل عن أداء وظيفتها أثناء النوم ، بل يزداد مجال عملها اتساعا ، وعندئذ تفقد الدقة التى كانت لها أثناء اليقظة ؛ إلا أن جمهرة العلماء وقد اعترفوا بالأحلام الحسية لم يمنعهم هذا أن يقرروا وجود نوع من الأحلام ، لايرجع إلى مؤثر حسى إطلاقا ،

ولكن يرد إلى مؤثر نفسى ذهنى بحت كأن يكون إشباعا لرغبة لم تتحقق فى اليقظة .

ومن التجنى أن يذكر فرويد على أنه مشايع للرأى الأخير ، القائل برد بعض الأحلام إلى آثار نفسية بحتة ، والأصح أن يقال إنه كان يرد الأحلام إلى منبهات حسية خارجية وإحساسات باطنية داخلية ، ومصادر نفسية هى التى أولاها جل اهتمامه . ويكاد يجمع علماء النفس المحدثين على هذا الرأى ، فأحلامنا تنشأ عن مؤثرات حسية ، ولكنها تحاك من مكنونات النفس ، فالمؤثر الحسى إذاً لا ينبىء عن مضمون الحلم بأكثر مما ينبىء قرع ساعى البريد عن مضمون الخطاب الذى يحمله إلى صاحبه .

وعلى رأى فرويد أن الحلم ظاهرة جسدية نفسية وليس ظاهرة نفسية بحتة ، ولا يكفى لتفسيره المنبهات الحسية التى تقع على حس النائم فى إبان نومه ، بل لا يكفى لتفسير الحلم أن نضيف إلى هذه الاحساسات الذكريات التى يحتمل أن تثيرها عن طريق تداعى المعانى ، ولا بد لتفسير الحلم من التماس نشاط نفسى أصيل ، أعم من الإحساسات والذكريات ، ويعبر فرويد عن هذا بقوله : إن للحلم مغزى .

ذلك أن علاقة الرمز بدلالته تتطلب أساساً تقوم عليه ، هوفكرة العلية ، ومعنى هذا أن مغزى الحلم علة مضمونة . والرموز التى تظهر على مسرح حوادثه علتها قائمة فى المعانى التى تحملها . وهذا يسلمنا إلى التفرقة بين المضمون الصريح والمضمون الكامن للأحلام ، والمراد بالمضمون الصريح للحلم كما يتمثل فى حالته الفجة برموزه ومناظره المجازية ، أما المضمون الكامن فيراد به المعانى الخفية التى تستتر وراء هذه الرموز وتتكشف بعد التحليل . على أن مضمون الحلم الكامن قد يكون فى مجال هامش الوعى وعندئذ يكون من البساطة بحيث لا يتطلب تأويلا وإنما يبدو تعقد الحلم إذا كان صادراً عن اللاشعور .

ويرى فرويد أن الأحلام استجابة لمؤثرات ، وتنفيث عن وجوه من الإثارة ، بها تمحى آثار المنبه فيتصل النوم ويستمر أى أن الحلم ليس اضطرابا فى حياة النوم بل هو حارس يقيه من المنبهات التى يعوق استمراره . ومن ثم يصل فرويد إلى عبارته المشهورة « الحلم تحقيق مقنع لرغبة مكبوتة أو مضغوطة » . والناس يفهمون من قول فرويد رغبة مكبوتة أنها رغبة جنسية دائما ، وهذا خطأ ، ولقد قال هو نفسه « لم أقل قط إن كل حلم يعبر عن تحقيق رغبة جنسية ، بل كثيراً ما قررت عكس هذا الرأى ، ولكن إنكارى — لهذا الاتهام — لايجدى نفعاً أمام إصرار خصومى » .

هكذا يقدم الدكتور توفيق الطويل دراسة مقارنة لهذا الموضوع الشيق العميق ، فى رسالته التى نال بها إجازة الدكتوراه من جامعة فؤاد الأول .

م . ا . س

رأى فى أبى العلاء

للأستاذ امين الخولى

نقد وتعريف محمد العلائى

الاخفاق وهو انهيار القدرة أمام الإرادة تجربة نفسية ثقيلة تختلف صورها وتتباين نتائجها غير أنها تستحيل فى النفس الكبيرة إلى ألم مستنير يستشف الحياة ويتأمل مصاعدها ومنحدراتها ويتطلع إلى خلف ضبابها من القيم والشرائع . ويستحيل فى النفس الصغيرة إلى حسرة مظلمة تستحدى الحياة أخس اللذائذ وتتعزى عن الأمل المفقود بسخرية الضعيف المتراجع وتصف الأقدار بما أفرزت خيبتها من حيرة وأحقاد .

وما من عبقرية فى التاريخ الإنسانى إلا وقد امتحنتها الأيام بتجربة الإخفاق إما فى طلب الحياة ، وإما فى طلب ما فوق الحياة من مثل وأهداف . وكان ولا يزال الطموح إلى الحق والخير والجمال فى معانيها المجردة حيناً ، وفى مظاهرها من واقع الحياة حيناً آخر هيكلا تطوف به عبقريات الفن والدين والفلسفة . واختلف نصيب هذه العبقريات من ذلك الطموح فكان فى بعضها اندفاعا حالما يبشر بمسرة الغيب وأفراح المجهول وكان فى أخرى توقفاً حائراً يتلمس في ظاهر الحياة مواطن البهجة ويستبعد شبح الفناء بنشوة الوجود ، وكان فى أخرى انقباضاً بائساً برفض خديعة الحياة بسحرها النافذ ويضطرب فى مقابلة الغايات بالوسائل ، ويتمرد على نوازع الجسد ويرتاب فيما بين الأرض والسماء من سنن وأوضاع .

ولعل هذه الظاهرة الأخيرة ، ظاهرة الانقباض اليائس ، أوضح فى أنفس الشعراء منها فى أنفس الأنبياء والفلاسفة . ولعلها أيضا لم تبلغ مداها فى نفس شاعر كما بلغته في نفس أبى العلاء ذلك الذى عاش حياته النفسية نهب الوساوس الذهنية المتناقضة وتقلبت على وجدانه ظواهر اليأس والأمل ، وعصفت بملكاته النزعات الشاردة ، وضاعت مواهبه بين إخفاق الإرادة وبين منطق التبرير ، واختنقت فرحة الحياة فى ضميره بتوقع الفناء ، وتسلط على إحساسه الملال حتى أفقده الانفعال بما تملك يداه ، وجسم له النهاية المحتومة في وقعها المخيف وصورتها المرذولة ، فنفض شعوره من الحياة وأغمض بصيرته عما فى ظاهرها من ملامح الفتنة ، ومدها إلى ماوراء الظاهر من شبهات وعورات مما جر عليه مرض الحياء وآفة الاشمئزاز ، وأخذه بإخماد غرائزه وتصفيد أهوائه وتحريم ما كان من شأنه أن يلهمه العزاء عما أراد ، ويجمل له ما يمكن أن يريد وهو دائر

بنفسه فى مفرق الطرق ما بين إخفاق أغلق أمامه أبواب الحياة ، وألهب إحساسه بالعجز والتصور وبين طاقة وجدانية عنيفة تأتى إلا أن تجد لها مجالا ومنصرفا .

وهكذا كان ، فاندفعت هذه الطاقة الوجدانية العنيفة بحرارة المركبات ولكن فى تيار عكسى ، وانقلبت إرادة الحياة فى نفس المعرى ، فبعد أن كانت قوة واستعلاء على الحياة والأوضاع فى دورها الأول أصبحت فى دورها الثانى قوة واستعلاء على أهواء النفس ورغبات الجسد .

وبهذا نجد المظهر النفسى فى حياة أبى العلاء بعد الأربعين ، مناقضة للمظهر النفسى فيما بين العشرين والأربعين . هذا وإن كان المظهران على مافيهما من تناقض تجمع بينهما أصول واحدة ، أو متشابهة من العقد والمركبات . ومن هنا كانت تجربة الإخفاق فى نفس المعرى مدار التحول ، والفاصل بين الشخصية الفنية فى دوره الأول ، وبين الشخصية الفنية فى دوره الثانى ، والشخصية الأولى هى أبو العلاء تلميذ المتنبى حين حفزه مركب القصور ، ودفعته جذوة الجنس ، فعالج الحياة وشارك فى زحامها وانفعل بواقعها ، وسار قافلة الزمن ، محتملا مشقة الوسيلة مأخوذا بإغراء الغاية . حتى أشرف على الأربعين ، وتراءت له حقيقة الإخفاق ، وتحطمت على صخرتها إرادته اليائسة ، وقدرته المجهودة ثم جسم شبح الإخفاق على هذه الشخصية ، حتى أزهقها وأقام مكانها الشخصية الفنية والنهائية لأبى العلاء ، تلك التى استحال فيها حب الحياة إلى تشهير بها ، وانطفأت فيها جذوة الجنس ، وانحلت عقدة القصور فتجنبت الحياة ، وأعرضت عن ظاهرها وأخذت نفسها بضيق المنفذ ووحشة الانفراد ، وامتازت عن الشخصية الأولى بغزارة الإحساس وامتداد البصيرة وصراحة الاعتراف ، وكانت جهاز تمثيل وإفراز لما استقبلت الشخصية الأولى فى واقع الحياة من التجارب والأحداث ، هذا ولم يكن أبو العلاء فى شخصيته أكثر من شاعر تتقلب على إحساسه حالات وجدانية ، عكسها واقع الحياة على نفسه فى دورها الأول ، وتذكره لواقع الحياة فى دوره الثانى . ولم تكن هذه الحياة الوجدانية التى تقلبت على نفسه ، غير نتيجة لبيئته المادية والمعنوية ، وأصداء وراثة كان لها الرأى الأول فى تكوين مشخصاته .

وذلك هو المعرى فى واقعه النفسى كما استطعت أن أستشف ملامحه من (رأى فى أبى العلاء) هذا الكتاب الذى أصدره أستاذنا « أمين الخولى » والذى أراه ظاهرة جديدة فى تاريخ الأدباء ينبغى أن تلفت الدارسين إلى الأضواء النفسية ، وقيمتها فيما تشع على التفسير الفنى من وضوح ، فالكتاب فى مجمله لا أستطيع أن أعتبره دراسة

لأبى العلاء وإنما هو توجيه لدراسة أبى العلاء ودعوة إلى إقامة البناء الأدبى على قاعدة نفسية ، فهو أشبه مايكون بمثال تخطيطى لمنهج البحث الذى يساير العصر ، وينهض بمطالب الحضارة العلمية ، فقد ظل أبو العلاء الف عام مثاراً لتهريج الدارسين وهدفا لسذاجة التأمل وسطحية التناول ، فقيل عنه قديما : لغوى يختلق المعنى كما تشاء القافية ، وقيل عنه حديثاً مفكر : سبق علماء الغرب بنظرية النشوء والتطور ، وقيل غير ذلك مما يشعر بالخجل والأسف .

ومهما يكن فإنى متفق مع الأستاذ الحولى على صورة المنهج الدراسى فى كتابه هذا ، مقدراً له هذا التوفيق المحكم بين الواقع النفسى والمظهر الفنى عند أبى العلاء ، ولكننى آخذ عليه إسرافا فى ملاحظة المقومات المادية للابسات المعرى ، حتى أوشك أن يتخطى التجارب والأحداث التى جرى بها قدر الصدفة على أبى العلاء ، والتى تتمثل فى مذكراته المفترضة ، لو أنه سجلها فى غلاف من إحساسه بوقعها على وجدانه ومدى تكوينها للحياة أمام بصيرته ، وفى ظنى أن هذه المذكرات المفترضة ، ليست أقل فى دلالتها وتوجيهها من هذه المقومات المادية التى أسرف الأستاذ فى ملاحظتها . كما أننى لا أستريح كما استراح هو إلى الفرض القائل بأن ضعف الحافز الجنسى هو الذى سهل على أبى العلاء مشقة العزلة . فإن تيار الملال والإعياء الذى أسكن من نفسه مركب القصور ، لايصعب عليه أن يسكت حافز الجنس ، فليست الغريزة الجنسية فى سن الأربعين بأكثر نشاطاً من غريزة التفوق .

وإلى جانب هذا ، فالوقفات التاريخية سريعة خاطفة لم تأخذ مكانها من القيمة المنهجية فرحلة أبى العلاء إلى العراق ورجعته صارخاً .

تمنيت أن الخمر حلت لنشوة ... تجهلنى كيف اطمأنت بى الحال
فأذهل أنى بالعراق على شفا ... رزى الأمانى لا أنيس ولا مال
مقل من الأملين يسر وأسرة ... كفى حزناً بين "مشت" وإقلال
سيطلبنى حظى الذى لو طلبته ... لما زاد والدنيا حظوظ وإقبال

أقول إن هذه الرحلة وهذه الرجعة وهذه الصرخة كان يمكن أن تكون منفذاً لمدار التحول فى حياة أبى العلاء .

وأخيراً فالكتاب بصفة عامة ضوء نفسى نستطيع أن نجد عليه الرأى النهائى فى أبى العلاء بعد الامتداد بفقراته المركزة والاقتراب من مراميه البعيدة ، ولولا حجم المقال الذى فرضه نظام التحرير لفصلت منزلة الكتاب من المنهج العلمى وإلى أى حد هو كما قلت ظاهرة جديدة فى تاريخ الأدب .

الأستاذ : محمد العدلونى

الكتب المهداة إلى مكتبة المجلة

من مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية :

المسئولية والجزاء : للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

التنبؤ بالغيب عند مفكرى الاسلام : للدكتور توفيق الطويل

الدين والوحى والاسلام : للأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق

اللغة والمجتمع : للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

* * *

أسس الصحة النفسية : للدكتور عبد العزيز القوصى أستاذ علم النفس بمعهد التربية العالى للمعلمين .

منبعا الأخلاق والدين : للفيلسوف الفرنسى هنرى برجسون وتعريب سامى الدروبى وعبدالله عبد الدائم

بين الفلسفة والأدب : للأستاذ على أدهم

هموم الشباب : للدكتور عبد الرحمن بدوى

مسرحية الأب : تأليف أوجست ستريندبرج وترجمة وديع فلسطين .

التربية العسكرية : للبكباشى عبد الرحمن زكى ، مدير المتحف الحربى ومدير تحرير مجلة الجيش .

مجلة الجيش : العدد الحادى والثلاثون من المجلد الثامن — اكتوبر سنة ١٩٤٥ .

بعض التيارات الفكرية التى أثرت فى دراسات الأدب
ونظرية عبد القاهر الجرجانى فى أسرار البلاغة للأستاذ محمد خلف الله
بحثان مستخرجان من مجلة كلية الآداب بجامعة فاروق الأول :
المجلد الأول ١٩٤٣ والمجلد الثانى ١٩٤٤